

في تغيير القيم الثقافية والحضارية الأسباب والنتائج

د. علي الإدريسي*

تتناول هذه المداخلة في البداية تقديم إشارات وتوضيحات حول عملية تغيير القيم الثقافية والحضارية وبعض مستوياتها ومجالاتها داخل المشهد الإسلامي وعوامل نجاحها في عصر الإسلام الزاهر، والعوائق التي اعترضتها في زمن النهضة المعاصرة. وذلك تيسيرا لضبط أهم الأسباب الكامنة وراء تغيير القيم الثقافية لدى الشباب، بخاصة، لكونهم القوة الأكثر فعالية في اقتحام المجهول في أي مجتمع والتعرف على نتائج ذلك التغيير وتمظهراته في سلوك الأفراد والجماعات، وتأثيراته الإيجابية منها والسلبية على النسيج الاجتماعي في الحال والمآل.

تغيير القيم عملية اجتماعية لها منطلقاتها

مما لا شك فيه أن التغيير عملية اجتماعية ثقافية إيجابية في حالة وجود المحرك من جهة، ووضوح الأفق الذي ينجذب إليه مجتمع ما من جهة أخرى. وقد يكون المحرك موجودا والأفق منعما أو مضيبا، والعكس صحيح. وتتم عملية الانجذاب بسرعة حين تكون عملية التغيير استجابة لفكرة عظيمة استطاعت أن تمس عمق جماعة اجتماعية يسود بينها الحد الأدنى من التآلف والانسجام، بحيث تعكس سلوكيات أفرادها القيم التي جاءت بها تلك الفكرة العظيمة، وتتجه بها بالتالي إلى بناء المستقبل الذي تصوغه وفق المثال الذي رسمته لنفسها

* أستاذ بكلية الآداب، جامعة الرباط، المغرب.

من داخل تلك الفكرة. أما في حالة خمود أو غياب الفكرة العظيمة عند الجماعة المعنية فإنها بلا شك ستتخبط وسط ركام من الموروث الذي يغلب عليه طابع الرتابة والعادة، ولكل جماعة من دهرها ما تعودت عليه؛ وينجم عن ذلك معاداة التغيير تحت علل مختلفة كعلة البدعة، أو علة مخالفة السلف، وقد تسقط فيما سقط فيه أولئك الذين واجهوا الرسول صلى الله عليه وسلم، بدعوى إخلاصهم لثقافة الآباء والأجداد. وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك في عدد من آياته، كقوله تعالى: ﴿قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾¹.

وفي فجر الإسلام كان القرآن الكريم هو تلك الفكرة العظيمة التي غيرت واقع مجتمع الجزيرة العربية في أقل من ربع قرن من الزمن، وهو زمن قياسي في عمليات التغيير الكبرى التي حدثت في التاريخ الإنساني.

ونعتقد أن الاستعداد السيكولوجي لحدوث عملية التغيير في مثل ذلك المستوى يكمن أساساً في وجود القابلية لدى المجتمع المقبل على التغيير؛ ومجتمع مكة، بصفته مركز ومنطلق تلك العملية، كان له بالإضافة إلى الاستعداد السيكولوجي، وضع اجتماعي واقتصادي لاستقبال عملية التغيير الثقافي ونجاحها، مصداقاً لقوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾².

لكن هل عملية التغيير تحدث فجأة وبدون مراحل؟ إذا رجعنا إلى التعرف على وضع مكة وواقعها الاجتماعي والثقافي والاقتصادي، بصفته شرطاً أولياً ضرورياً للانطلاق والانجذاب نحو المستقبل،

1. سورة المائدة، الآية 104، أنظر أيضاً الآيات 170 من سورة البقرة و28 و95 من سورة الأعراف و78 من سورة يونس و53 من سورة الأنبياء و74 من سورة الشعراء و21 من سورة لقمان و22 و23 و24 من سورة الزخرف - 2. سورة الرعد، الآية 11.

أو التقهقر والانتكاسة إلى الوراء، نجد القرآن الكريم يصف لنا ذلك الواقع في قوله تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾¹. أي أن سكان مكة كانوا عشية ظهور الرسالة المحمدية (الفكرة العظيمة)، يتمتعون بما نسميه في لغتنا المعاصرة بالأمن الاقتصادي، وبالأمن الاجتماعي، وبالأمن النفسي، وهذه الامتيازات الأمنية تشكل في مجموعها الأمان، الذي هو الباعث الأساس لنشر القيم القائدة للإنسان قصد تغيير واقعه نحو الأفضل.

القيم الأكثر تأثيراً وفعالية في عملية التغيير

ويشير القرآن الكريم إلى قيم كثيرة تجعل ثقافة المجتمع ثقافة فاعلة حين يحث على فضيلة التعاون بين أعضاء ذلك المجتمع بقوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾²، ويحصن قيمة التعاون فيجعلها في مرتبة التوحد الذي يمنح للمجتمع كل أسباب المناعة ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾³؛ ويربط التعاون وأسباب المناعة بقدوة رسول الله ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾⁴. وتتجلى القدوة في اقتباس ما يراه الناس صالحاً في سلوك أو ثقافة مرشديهم، أو في سلوك وثقافة غيرهم.

وركز القرآن الكريم على القيم الأخلاقية التي تجعل ثقافة الإنسان ثقافة فاعلة. وأهم هذه القيم قيم الخير والمصارعة في فعل الخيرات، والسلوك الحسن، ودفع السيئة بالحسنة، والإصلاح بين الناس، والحكمة، والصدق، والاستقامة والثبات، وسلامة القلب، والعفو على الناس والصفح، وإشاعة روح السلام، والرحمة، والإحسان، والإيثار، والعفة، والقرى، والإعراض عن اللغو، والاعتدال في الأمور،

1. سورة قريش، الآية 4 - 2. سورة المائدة، الآية 2 - 3. سورة آل عمران، الآية 103 - 4. سورة الأحزاب، الآية 21.

والصبر، وكظم الغيظ، والعدل والإقسط، وشكر النعمة، والتواضع وخفض الجناح، والوفاء بالعهد. ويجب التذكير بأن القيم التي اعتمدها القرآن لم تكن كلها مستحدثة، بل إنَّ منها ما كان موجوداً في الأديان السابقة وفي التراث الإنساني المشترك. وقد أشار رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى ذلك بقوله: "إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ".

وإذا كان الوقت المخصص لهذه المداخل لا يسعنا لإيراد كل الآيات القرآنية التي لها صلة بالموضوع؛ فإنه جدير بالتذكير أن القيم الموجبة للخير في القرآن يصل تعدادها إلى واحد وثلاثين قيمة. أما القيم الحائرة على التحلي عن الأخلاق الذميمة التي تؤدي إلى انحلال القيم فتقارب ضعفي الأولى (54 قيمة)¹.

بهذه القيم وبمفعولها استطاعت رسالة الإسلام أن تصل إلى قلوب الشباب وعقولهم بصفتهم القوة القادرة على الاستجابة لمشروع تلك الرسالة، أو الفكرة العظيمة الدافعة إلى تغيير الواقع، والموجهة لبناء المستقبل. وعملية تغيير الواقع هذه لم تحدث في معزل عن التلاحم بين الجيل المتشبع بحكمة القرآن والجيل الذي كان يملك القدرة على تجسيد تلك الحكمة على أرض الواقع.

1. بما أن منهجية هذه المداخل لا تسمح بإيراد كل الآيات التي تتحدث عن القيم المؤثرة إيجاباً وسلباً في الفعل الأخلاقي الاجتماعي والثقافي فإننا نكتفي بالإشارة إلى بعض السور ورقم آياتها تيسيراً لكل من يريد العودة إلى نص الآيات الكريمات، مع العلم أن كلمة "خير" ذكرت 139 مرة بمختلف وظائفها واستعمالاتها مثل السور والآيات التالية : البقرة : 104 و 112 و 163 و 177 و 231 و 237 و 251 و 263، آل عمران: 77 و 114 و 134، النساء: 86 و 114 و 128 و 135، التوبة: 29 و 60، الأنعام: 152، المؤمنون: 1، 2 و 3 و 5 و 6، 7 و 96، النور: 27 و 28، الفرقان: 63، الأنفال: 61، الإنسان: 24، الشورى: 37، الممتحنة: 8، لقمان: 18 و 19، فصلت: 34 و 35 و 46، البقرة: 110 و 148، يونس: 26، الكهف: 30، طه: 12، الأنبياء: 90، محمد: 31، النحل: 125، الحجرات: 9 و 10 و 15، الأحزاب: 35، غافر: 21، الرعد: 24، الفتح: 29، البينة: 7 و 8، العصر: 3. ويضم القرآن بين دفتيه عشرات من الآيات الأخرى التي تبين مساوئ الأخلاق وعواقبها.

ولن نستغرب، إذن، والحال هذه أن تؤسس تلك الطليعة من المتشبعين بتلك القيم مجتمعا جديدا يستمد مشروعه المستقبلي من قبلة متميزة عن غيرها من القِبَلات والمرجعيات السابقة، أو تلك التي كانت لا تزال قائمة في المجتمعات الأخرى، دون أي معاداة لها إذا ما جنحت للسلم ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلَامِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾¹.
وقولنا إنها قبلة متميزة فإن ذلك لم يمنعها من أن تكون في الوقت نفسه مركزا لتبلور مختلف ثقافات الشعوب التي اعتنقت الإسلام، بل مختبرا للأخذ والعطاء مع ثقافات الشعوب الأخرى التي اختارت الاستمرار في معتقداتها، وفق رؤية ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾²، ومنهج ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾³.

قوة القيم عامل قوي في انفتاح المجتمع

وسر انفتاح المجتمع الإسلامي على المجتمعات المخالفة له ثقافيا وفكريا في تلك المرحلة يكمن أيضا في قوة تجسيد المسلمين للقيم التي جاء بها الإسلام على أرض الواقع، وفي الاطمئنان الناتج عن الشعور بالأمان الاجتماعي لكل من يستظل بدستور الإسلام. وذلك على الرغم من المشكلات السياسية التي استفحلت بعد مقتل الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه، وعودة العصبية القبلية على حساب فكرة الأمة، لأن الجسم الإسلامي آنذاك كان لا يزال جزءا هاما منه يرد كل ما يصادفه من معضلات إلى مختبر مركزي؛ وكان ذلك المختبر هو الإسلام الضامن لتعدد الآراء والتأويلات والاجتهادات.

1. سورة الأنفال، الآية 61 - 2. سورة الحجرات، الآية 13 - 3. سورة المؤمنون، الآية 96 وسورة فصلت، الآية 34.

كثيراً ما نظر إلى الصراع على السلطة كأساس وحيد للحد من فاعلية قيم المجتمع الجديد، خاصة بعد تحويل الخلافة إلى ملك عضوض إذ اختصر مفهوم الولاء للأمة في الطاعة للأسرة الحاكمة، مع ما صاحب ذلك من تقليص لأثر مبدأ ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ﴾¹.

غير أن الواقع لم يكن كذلك تماماً؛ فقد نشأ أيضاً صراع الملل والنحل والمذاهب السياسية والفقهية، التي اتخذت من الجدل منهجاً، ومن السياسة عباءة ومطلباً، وحولت الاختلاف في الرأي إلى خلافات عميقة، خاصة عندما لجأت السلطة السياسية إلى توظيف تلك الخلافات، اعتقاداً منها أن ذلك سيخدم مصلحة الحكم واستقراره.

وهكذا انتقل المجتمع الإسلامي من زمن تفاعلت فيه الآراء وتعايشت وتساكنت إلى مرحلة الركود والجمود التي أصابت المجتمع الإسلامي، خاصة بعد استنفاد أصحاب الملل والنحل لمجادلاتهم والمتكلمين لطروحاتهم؛ واستقرار أصحاب المذاهب في حصونهم الدفاعية؛ إضافة إلى الوهن والضعف اللذين أصابا طالبي الدولة. وبذلك يكون المجتمع الإسلامي قد تخلى عن ثقافة وقيم ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾²، ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ﴾³، إلى ثقافة الركون والجمود، وإلى أخلاق "اسمعوا وأطيعوا"، وإلى علم اجترار أمجاد الماضي، والدعوة إلى السير على نهج السلف، دون الانتباه إلى أن الحياة تتجدد. فقد تم الاستغناء عن البحث والاجتهاد والاكتفاء بمختصرات تواليف عصور الجذب من الأمم.

من الانجذاب إلى الأمام إلى الدفع من وراء

وهكذا انتقل المجتمع الإسلامي من عصور الانجذاب إلى الأمام إلى مرحلة الدفع من وراء، حيث خَفَتَ شعاع القيم، وعاد المجتمع

1. سورة الشورى، الآية 37 - 2. سورة الإسراء، الآية 85 - 3. سورة البقرة، الآية 251.

إلى درك الغرائز. ويمكن القول: إن العصر الذي تلا عصر الموحدين هو البداية العملية للخروج النهائي من مجتمع القيم إلى مجتمع الركود والجمود المصطلح عليه في بعض أدبيات عصر النهضة بعصر "الانحطاط". ويرجع مالك بن نبي (ت 1973) ما آل إليه المجتمع الإسلامي إلى ابتعاده عن عالم القيم، ويطلق صفة "إنسان ما بعد الموحدين" على إنسان مرحلة الركود والانغلاق، أي الإنسان الفاقد لقيم الفاعلية والقوة المحركة للهمم.

استمر ركود المجتمع الإسلامي قرابة ستة قرون من الزمن متخبطاً في فقر مدقع في فكره قبل معاناته من فقره المادي. ومما لا شك فيه أنه حين استسلم لذلك المصير فقد الشعور بالأمان والاطمئنان وعوضهما بالاستسلام والتواكل، وغاب التوتر الخلاق وساد السكون والجمود. كما سادت القيم المغلوطة كالاعتقاد بأن المسلم هو الإنسان الكامل في الوجود بغض النظر عن واقعه المتردي، وراح يبحث عن مبررات ذلك كالاعتقاد بأن المؤمن مصاب، وأن ذلك امتحان من الله، موظفاً أمثلة من قصص القرآن كمثال نبي الله أيوب، إلى غير ذلك من الأمثلة والمعتقدات الوهمية في الأولياء والخوارق.

ولم يبدأ يعي واقعه وماذا يجري حوله إلا ومدافع نابليون تدك أسوار القاهرة، وجحافل الغزو الاستعماري تحتل الجزائر. ومنذ تلك اللحظة والبحث جار عن السبل المؤدية إلى استرجاع الجدارة المفقودة، وعن القيم الإيجابية التي يمكن أن تعيد للمجتمع دوره الحقيقي في الحياة واعتباره في الوجود.

سؤال رواد النهضة ومنهجهم

تراوح سؤال النهضة / اليقظة / الانبعاث، في البداية، حول الطريق الأسلم والأقصر في الوقت نفسه للخروج من وهاد وكبوة

التاريخ، هل هو طريق السلف الذي اتخذ شعار "لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح بها أولها"، أو اتباع الطريق الذي سارت فيه أوروبا، حتى خرجت من تخلفها وركودها، واعتبار القيم الثقافية الغربية التي جلبها الاستعمار معه إلى البلدان المستعمرة غنيمة حرب لا يجب التفريط فيها بوصفها أساسا للتطور في أقصر مدة زمنية.

اختلف الشركاء الداعون إلى اتباع طريق السلف حول المنهجيات الواجب اتباعها، هل يكفي العودة إلى المناهج التي اعتمدها الأجداد لاقتراح حلول لمشكلات الحاضر التي تراكمت بفعل قرون من الركود بما تم في سياق اجتماعي وتاريخي مغاير؟ وإذا كان المخرج ممكنا فيما يتعلق بالعقائد، فهل يكون الأمر كذلك بالنسبة للمشكلات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية والثقافية في عالم قد تغير تغيرا جذريا عن عالم السلف القديم؟ أم أن المقصود بالعودة إلى منهج السلف الصالح هو ربط الاتصال ومد الجسور من أجل تجديد المسيرة وفق متغيرات الواقع ومعطيات العصر؛ كي لا تفقد الانطلاقة الجديدة أصالتها وتميزها؟ أو أن هذه المنهجية كانت وسيلة ضرورية في زمن الاستعمار قصد تجنيد المشاعر العامة كي لا تفقد هويتها الثقافية بعد أن فقدت أشياءها المادية، ومن أجل بناء آليات الدفاع للحفاظ على ما تبقى من القيم الثقافية.

ربما كان هذا الهاجس الأخير هو أكثر حضورا في أدبيات النهضة، خاصة في مرحلة الغزو الاستعماري حيث حاولت الأيديولوجية الاستعمارية أن تقنع المستعمرين "بأن الاستعمار قد انتشلهم من الظلام (...)" وأن رحيل المستوطن الأوروبي سيردهم إلى الهمجية والوحشية والحيوانية" على حد تعبير فرانتز فانون¹. فكان لا بد

1. فرانتز فانون، معذبو الأرض، ترجمة سامي الدروبي وجمال الأتاسي، دار القلم، بيروت، 1972، ص 155.

من آلية دفاعية مضادة يجب أن تشتغل في كثير من الأحيان بتلقائية؛ وكانت تلك الآلية تتمثل، بصفة خاصة، في تمجيد الماضي، ماضي السلف الصالح. وكانت تلك الآلية فعالة حين جمعت بين اكتشاف ذلك الماضي الذي غذى روح المقاومة وأحيا الأمل بالعودة إلى التاريخ، وبين الحفاظ على ما تبقى من عنفوان الماضي، ولو بطريقة عاطفية، كشهادة على إمكان الانبعاث من جديد.

لكن استمرار تمجيد الماضي، دون إنتاج فكرة أصيلة تساعد المجتمع على التخطيط لمشروعه المستقبلي وفقا لنموذج المثل الذي يسعى إلى تحقيقه، وإظهار أصالته وتميزه عن غيره، سيقى مجرد هدر للطاقة في غير محلها. إذ "لا يمكن أن نعالج بؤس مجتمع من خلال إشراقات ماضيه" فقط¹، كما تنبه إلى ذلك مالك بن نبي وآخرون من المفكرين الذين شغلهم ويشغلهم التباطؤ الحاصل في مسيرة المجتمعات الإسلامية الحضارية، انطلاقا من الذات وليس اعتمادا على استيراد منتجات حضارة أخرى.

أما دعاة السير على خطى الغرب فتبناها أولئك الذين اعتقدوا بكونية القيم، ويقصدون بذلك قيم الحضارة الغربية، والشعار الذي اتخذوه لتسويغ ذلك هو "للحاق بركب الحضارة". وكأن الحضارة لها هوية واحدة، وطبيعة واحدة، وقيم ثقافية واحدة، أصلها اليونان، وأعمدها الرومان، وجسرها الحركة الإنسيّة (Humanisme) التي تميز بها عصر الانبعاث الأوروبي، التي جعلت مناقب الإنسان أساسا لكل القيم؛ وقمتها في الغرب الحديث، وريث عصر الأنوار والثورات الاجتماعية، الحضارة التكنولوجية والأنظمة الديمقراطية وحقوق الإنسان، واعتبار كل من لا يتبنى القيم الغربية بوصفها قيما كونية معاديا للحدثة والعولمة إلخ...

1. مالك ابن نبي، التوجهات الاستشراقية وأثرها في تشكيل الفكر الإسلامي المعاصر، ترجمة محمد أمزيان، مجلة "المنعطف" المغربية، عدد 18 و19، ص 59.

اقتنع كثير من مفكري العالم العربي الإسلامي بعالمية القيم الحضارية، وخاصة أولئك الذين بهرتهم مناهج التفكير الجديدة ولمعان الحضارة الغربية الحديثة والمعاصرة فدعوا إلى ضرورة الانخراط والاندماج فيما اصطلح عليه بـ "الحداثة والمعاصرة".

وإذا كانت طبيعة هذه المداخل لا تسعفنا لإيراد نماذج مختلفة لمفكري العالم العربي الإسلامي حول عالمية الحضارة وضرورة الانخراط في الحداثة والمعاصرة، فإننا سنكتفي بالإشارة إلى مواقف بعض مفكري الجناح الغربي من هذا العالم لتبين بعض قضاياها هناك.

مواقف مقابل مواقف

عمد عميد الفلاسفة المغاربة المعاصرين، صاحب الشخصية الإسلامية، محمد عزيز الحبابي إلى التمييز بين ما هو خاص وبين ما هو مشترك بين الإنسانية جمعاء؛ ففي الوقت الذي يؤكد فيه أن الثقافة خاصة بكل شعب من الشعوب لأنها "التجسيد العملي لعبقرية شعب من الشعوب في شغله، ونظراته للعالم وتصرفاته (يذهب إلى أن) الحضارة هي تجلي عبقریات جميع الشعوب في جهودها ومساعيها المتضافرة على توالي العصور التي شهدتها التاريخ الإنساني : إنها تراث الإنسانية المشترك"¹. لكن الحبابي سيكتشف لاحقاً أن هذه الحضارة المعاصرة ليست تراثاً إنسانياً مشتركاً، بعد أن رآها "بلا أصباغ عارية تبعث على الإشفاق، كل ما فيها مفضوح، وينذر بالفوضى والحروب".

1. محمد عزيز الحبابي، من المغلق إلى المفتوح، النسخة العربية، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، 1971، ص 19.

ولا ندري على وجه اليقين إن كانت خيبة أمله في الحضارة المعاصرة، بعد مقولته الأولى بحوالي ثلث قرن من الزمن كانت نتيجة رؤية نقدية للمركزية الحضارية الغربية ومنهجيتها في إقصاء دور الحضارات الأخرى في مسيرة تطور البشرية، أم هي مجرد عتب عاطفي وحالة ظرفية ؟

مهما يكن من أمر فإن الحبابي أعلن، بعد مرحلة متميزة من الاتصال والتعامل المباشر مع قيم الحضارة الغربية، أن حاجة العالم "إلى حضارة ما بعد التصنيع (حاجة) ملحة، لكي تكون حضارة لغد إنساني شمولي"؛ ثم أكد أن ذلك لن يتحقق "إلا بقطيعة مع الحضارة الحالية، التي أفرزت الاستعمار الغاشم والحروب العالمية الفتاكة"؛ ولم ينس الإشارة إلى المساهمين الذين عليهم تحقيق ذلك الغد الإنساني الشمولي، ألا وهو "تآلف مجموع أثلاث العالم وتكامل أصناف المعرفة"¹.

ويبدو أن هذا النقد الموجه في جانب منه إلى المتشبهين بمقولة "كونية قيم الحضارة الغربية المعاصرة" يدعم موقف مالك بن نبي الذي اعتبر منذ استقلال أقطار شمال إفريقيا أن دور الحداثيين المسلمين الذين رأوا الخلاص في اقتفاء أثر الحضارة الغربية هم أخطر من دور أساتذتهم المستشرقين، فهم لا يعترفون لحضارتهم العربية الإسلامية إلا بدور الوسيط، بل إنهم يحملون الإسلام "مسؤولية الجمود الحالي الذي يعاني منه العالم الإسلامي"². ثم إنهم حين يعتقدون بوحداية الحضارة، ووحداية الثقافة يجعلون العالم كله يخضع للقيم الثقافية الغربية، وهذا إنكار غير مبرر لواقع الحضارات

1. محمد عزيز الحبابي، المستقبلية والندية، ضمن أشغال "ندوة الفكر الفلسفي بالمغرب المعاصر"، منشورات كلية الآداب، الرباط 1993، ص ص 23، 24، 25 - 2. انظر مجلة المنعطف المغربية، مرجع سابق ص 63.

في العالم؛ هذا الواقع الذي بنى عليه هنتنغتون نظريته المزعومة في صدام الحضارات. لكن ما يمكن أن يفسر موقف هؤلاء هو اعتقادهم الراسخ في إمكان اقتناء حضارة جاهزة من خلال استيراد منتجاتها، وينسون أن عملهم ذلك هو بمثابة تحصيل لهيكل تلك الحضارة المستوردة دون روحها¹.

وقد يذهب البعض إلى الاعتقاد بأن مواقف مالك بن نبي من قيم الثقافة الغربية نابعة من بغضه الحاد للاستعمار؛ وأن هذا البغض حجب عنه الدور الإيجابي للقيم الحضارية التي رافقت وصول الاستعمار إلى البلاد العربية، والتي بفضلها تم تحريك السواكن وإيقاظ الهمم، فانطلق عصر النهضة العربي.

لكن مالك بن نبي لم يكن معاديا للغرب كما يعتقد البعض، بل كان يسكنه هاجس مركزي وسؤال محوري يتعلقان بكيفية إعادة الروح من منفاها السحيق لكي يستطيع المسلمون تشكيل حياتهم ومستقبلهم وفق زماهم وإرادتهم هم، وليس وفق زمن الآخرين؛ ولذلك نراه لا يحصر نقده للمسلمين المتأثرين أو المتبنين للحدث² الغربية فقط، بل نجده يوجه نقدا مريرا إلى منطق زعماء الإصلاح الذين اعتنوا بإصلاح المظهر دون الوصول إلى المخبر، معلنا في الوقت نفسه انتصاره للمنطق الديكارتي قائلا: "إن الإصلاح لا يعني

1. مالك بن نبي، شروط النهضة، دار الفكر المعاصر ببيروت، ودار الفكر بدمشق 1987، ص 48 - 2. مصطلح "الحدث" وعبارة "الحدثين" من العبارات التي يكتنفها كثير من الغموض لدى مستعمليها، وكثيرا ما حاول القائلون بكونية الحضارة والقيم أن يروجوا في مقالاتهم بأنهما من خصائص الحضارة الغربية وقيمها الاجتماعية والثقافية والفنية والسياسية والحقوقية. في حين يرى آخرون أن كل مجتمع يحاول تجديد حياته وفق مشروع منبثق عن رؤية ذاتية للمستقبل تتميز بالأصالة هي الحدث، ومالك بن نبي ينتقد كل من لا يعمل في الاتجاه الثاني.

شيئا واحدا في عقل تمرن في المنطق الكارتزياني وفي عقل كونه علم الكلام¹. فهو إذن مع المنطق الكرتزياني، وليس ضده، وهو إذن حدثي بهذا المعنى، غير أنه يوضح أن تمرنه في المنطق الديكارتي لا يبعده عن أصالته، حين أوضح ذلك بقوله: "لكن روحي كانت تنطوي على قوة مذكرة كانت ترد كل ما يقع تحت بصري على مشغلة مركزية أساسية. والإسلام كان تلك المشغلة"² وهو إذن لم يكن يعادي الغرب كقيمة مضافة إلى الحضارات الإنسانية، ولم تكن معاداته للاستعمار تعصبا، بل كان ينظر إليه نظرة مزدوجة: نظرة الغاصب لحقوق الآخرين الطبيعية، ونظرة العامل المساعد على استعادة الوعي بالذات؛ ولذلك نراه يرد على المتشبهين بأوروبا، كطريق وحيد للحاق بركب الحضارة، وعلى الناكرين لدورها الإيجابي بالكلية، بقوله: "فلو أننا لم نتحدث إلا عن عصاها السحرية، (أي أوروبا) كما يفعل الاستعمار، فلسنا نستخدم سوى شهادة زور في التاريخ، ولكننا أيضا نقدم شهادة أخرى مزورة لو اقتصرنا، منهجيا، على التحدث عن سوطها. فأوروبا لم ترد تمدن العالم، هذا حق، ولكنها وضعت على طريق التحضر، حين جعلت تحت تصرفه الوسائل المادية ليتبع هذا الطريق، وحين أمدته بإرادة السير فيه"³.

هكذا وقف مالك بن نبي من قيم الحضارة الغربية، فهي ليست شيطانا رجيمًا، ولكنها ليست حلا سحرًا لمشكلات العالم.

1. مالك بن نبي، مذكرات شاهد القرن - الطفل، دار الفكر، دمشق 1969، ص 157.
2. مالك بن نبي، مذكرات شاهد القرن - الطفل، ترجمة مروان قناتي، دار الفكر، بيروت 1969، ص 157 - 3. مالك بن نبي، فكرة الأفريقية الآسيوية في ضوء مؤتمر بانءونغ، دار الفكر، دمشق طبعة 1679، ص 249.

وما يعاني منه عالمنا المعاصر من تصنيف تمييزي واضطرابات وحروب هنا وهناك، ومحاولات إخضاعه لتلك القيم ليست إلا دليلا آخر على عدم أهلية تلك الحضارة لقيادة العالم نحو شاطئ الأمان. ذلك الشاطئ الذي كان عبد الكريم الخطابي لا يراه إلا من خلال تعاون وتضافر جهود علماء الطبيعة والمفكرين وعلماء الدين¹. أما المفكر الفرنسي "رجاء غارودي" فقد انتقد دعاة أنصار الحضارة الغربية من داخل جسم تلك الحضارة، حين أشار في كتابه "نداء إلى الحياء" بأن الغرب يكذب على الناس عندما يقول لهم: "افعلوا مثلي وستطورون"، في الوقت الذي يعرف فيه، هذا الغرب، جيدا أنه لم يتطور إلا بنهب خيرات تلك الشعوب التي ينصحها بتقليده بالسير في ركابه !

هذه المواقف والآراء، يمكن أن تكون قد عبرت عن مستخلصات من تاريخ الحضارات الإنسانية التي مارست التفاعل والتلاقح عبر المسيرة الإنسانية، مع احتفاظ كل حضارة بأصالتها الثقافية والمعرفية، وفقا لإحدى وظائف الإنسانية في القرآن الكريم: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾²، لأن الشعوب والأمم التي سارت في طريق الانغلاق والجمود، أو في طريق الانقياد أو التبعية العمياء اندحرت وانقرضت.

لكن في المقابل نجد مواقف أخرى تعتقد بأن تغيير أوضاعنا وأحوالنا يجب أن يتم وفق منظور كوني؛ فعبد الله العروي مثلا يصر على أن الحضارة الأوروبية حضارة كونية، واعتبارها منقذا وحيدا من التخلف، ومرجعا فريدا لعملية انعتاق المجتمعات غير الأوروبية من أوضاعها القروية - وسطية حسب تعبيره، حين قال: "الدور التاريخي الممتد من عصر النهضة إلى الثورة الصناعية هو المرجع الوحيد

1. علي الإدريسي، ضمن "معجم مشاهير المغاربة"، مادة "خ"، منشورات دحلب، الجزائر 2000، ص 162 - 2. سورة الحجرات، الآية 13.

للمفاهيم التي تشيد على ضوئها السياسات الثورية الرامية إلى إخراج البلاد غير الأوروبية من أوضاع وسطوية مترهلة إلى أوضاع صناعية حديثة" ويبرر موقفه هذا بقوله: "ليست هذه الفرضية فكرة مسبقة، بل نتيجة استطلاع التاريخ الواقع، وهي المبرر الوحيد لحكمنا على السلفية والليبرالية والتكنوقراطية بالسطحية وعلى الماركسية بأنها النظرية النقدية للغرب الحديث، النظرية المعقولة، الواضحة النافعة لنا في الدور التاريخي الذي نحياه"¹.

ولم يكن رأي عبد الله العروي، الناقد للأيديولوجية العربية المعاصرة لصالح الأيديولوجية الأوروبية الماركسية، عزفا منفردا في موضوع ضرورة إحداث التغيير في العالم غير الأوربي من خلال السير في ركاب الحضارة الغربية وقيمها، بل نكتشف أن محمد عابد الجابري، المحسوب على الفكر القومي العربي، يعتقد من جانبه أن عدم الانخراط في الحداثة، كما هي متعارف عليها في الغرب، يؤدي لا محالة إلى التهميش، بل إلى الركون خارج المستقبل حين قال: "إن الحداثة في جوهرها ثورة على التراث القديم، وتراث الماضي والحاضر، من أجل خلق تراث جديد، والحداثة اليوم لا وطن لها (...) الحداثة اليوم حادثة غازية كاسحة إن لم تأخذ بما أخذتك، وإن لم تعمل (...) من أجل تبيئتها في واقعك وخصوصيتك جرفتك واقتلعتك من جذورك، أو همشتك، وألقت بك جانبا خارج الحاضر والمستقبل، "تجتز" الماضي، بل يجتز الماضي نفسه فيك"².

لا ندري ما القصد، على وجه اليقين، بعبارتي التبيئة والخصوصية ما دامت الحداثة الغربية لها هذه القوة من التجريف لمعارضيتها

1. نقلا عن عبد السلام بن عبد العالي، ضمن أشغال ندوة "الفلسفة في الوطن العربي"، منشورات مركز الوحدة العربية، بيروت 1985، ص 225 - 2. محمد عابد الجابري، حوار المشرق والمغرب، منشورات دار توبقال، الدار البيضاء 1990، ص 70.

واقترلاع جذور من يقف في وجهها. لكن ما نحن متأكدون منه هو أن هذه الأجواء الفكرية المتناقضة حالت دون تكوين جذع مشترك لحفريات النهوض وتغيير الواقع، ولمكونات الانبعاث المأمول، بحيث يجد فيه كل من ينخرط في هذا المشروع سنداً يطمئن إليه، ومرجعية مشتركة، وأصالة تميزه عن غيره تعطيه شعوراً بأنه لم يعد على هامش التاريخ، أو مجرد ريشة تعبت بها رياح حضارة غازية لا دور له فيها إلا السير في ركابها.

ونعتقد أن الجدل الذي يجري منذ بداية عصر النهضة بين أنصار رؤية "لا يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها"¹ وبين أنصار قيم الحداثة الغربية، شبيه بجدل الفقهاء والمفكرين الذي أدى في نهاية المطاف إلى توقف مسيرة الحضارة الإسلامية؛ وكان جدلاً ملفوفاً بعباءات أهل السياسة، كما هو معلوم، لأن السؤال الذي كانت له الأولوية في تلك المرحلة تمحور حول قضايا جدلية خلافية، بدل السؤال الذي كان يجب أن يؤدي إلى تحديد النظر فيما يضمن مستقبل تلك الحضارة، كذلك كان الأمر في عصر النهضة؛ فعوض الاتفاق على مرجعية مشتركة والاستناد إلى جذع مشترك، من أجل تحديد ماذا نريد في حاضرنا ول مستقبلنا، قضينا أكثر من قرنين من الزمن في التباري والمجادلة حول من هو الأصوب، أهو الحداثي الغربي، وهو أصناف وأشكال، أو السلفي، وهو أيضاً أصناف وأشكال؟ وغالباً ما تم ذلك خدمة لعباءات سياسية كذلك.

ومما لا شك فيه أن هذا الجدل كان سبباً قوياً في خلق التباعد والتشاحن بين الموكول إليهم، بطبيعتهم أو بوظائفهم، إنجاز مهمة

1. إن هذا الشعار وظف بقراءات متعددة ومختلفة، وفقاً لمرامي مستعمليه. ونعتقد من جانبنا أن صلاح الأمة قديماً أو حديثاً كان وسيكون بتحديد العمل بالقيم التي بنى بها المسلمون حضارة متميزة بقيمتها التي ساهمت بها في تقدم الإنسانية، مع استحضار دائم لمفعول الزمن في جميع أبعاده.

التغيير الثقافي في المجتمع؛ وبدل أن يؤسسوا لثقافة الاختلاف المنهجي لكي يصبحوا شركاء في تحقيق الأهداف من التغيير المنتظر، تحولوا إلى فرقاء وشيع، بشعارات عنوانها "الأصالة" وأخرى عنوانها "المعاصرة". وراح كل طرف يحصن مواقعه ويغالي في الدفاع عن حصونه، وكأن زمننا الحضاري والفكري لم يبرح مشارف القرن الخامس الهجري.

نتائج التعارض بين قيم خطاب النهضة

إذا كنا قد أشرنا إلى بعض الأسباب وليس إلى أغلبها فيما تقدم، وذلك نظرا إلى طبيعة الموضوع وتشعباته المتصلة بهذا الجانب أو ذاك، ثم نظرنا إلى محدودية مجال هذه المداخل، فإننا سنحاول في عجالة أيضا أن نعرض لبعض النتائج الناجمة عن تعارض القيم التي بُني عليها مشروع الانبعاث أو النهضة في العالم العربي الإسلامي، أي مشروع الانتقال من ثقافة الدفع من الوراء، أو التواكل، إلى ثقافة الجذب من الأمام، أو ثقافة الفعل، وانعكاساتها على عملية التغيير الاجتماعي بصفة عامة، وعلى فئة الشباب بصفة خاصة.

مما لا شك فيه أن عدم انطلاق شركاء مشروع النهضة من مرجعيات مشتركة، وعدم الاتفاق على طبيعة المجتمع المراد بناؤه جعل العاملين على المشروع يتحولون إلى فرقاء أدخلوا المجتمع في أزمة بدل العمل على تجاوز الأوضاع المهترئة الموروثة عن قرون من الركود والجمود. وكأننا بشجرة المجتمع قد تفكك جذعها المشترك، وأمست فروعها عديمة أو ضعيفة العلاقة بجذعها الضامن لمئاتها وسلامتها. وأضحت بسبب ذلك معرضة لأي خطر تحت أي ظرف، لأن مناعتها قد ضعفت ووهنت من آثار القرون العجاف، ومن غياب الناظم لمناهج وبرامج مشروع النهضة/الانبعاث. وبدل

أن يكون هنالك منطلق ومرجعية مشتركة لمشروع الانبعاث ورؤية إستراتيجية لآفاقه اختلفت المرجعيات إلى درجة التناقض، وتشتت جراء ذلك الجهود، بل تضاربت المرامي والغايات، فأصبح الموحد مفرقا والمجمع مشتتا ﴿تَحْسِبُهُمْ جَمِيعًا وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى﴾¹ كل واحد يغني على ليله ويهيم في شعاراته.

حلت الشعارات المرحلية، إذن، محل القيم والمبادئ، ووقع الخلط بين كثير من المصطلحات والمفاهيم، التي تم تداولها، منذ التأريخ لعصر النهضة² فاضطربت القنوات التي كانت بمثابة يقين عند أجيال من الدارسين والباحثين عن أنجع السبل والمناهج لإعطاء عملية التغيير بعدها الإيجابي القائم على أساس من القيم الخلاقة والأصيلة، وتضبيب الرؤية أمامهم. ثم بدل أن يبحثوا عن العلل التي حالت دون تحقيق مشروع الانبعاث لأهدافه، تحول الشركاء المفترضون للمشروع إلى فرقاء وعصبيات قلما جرى ويجري بينهم تواصل وحوار مسؤول عن أسباب إخفاق خطاب الانبعاث والنهضة في نشر القيم الثقافية التي تدفع إلى تحديد الذات وتغيير الواقع نحو الأفضل من خلال تواصلها مع قيمها التي تعطلت ذات يوم في لحظة تاريخية طبيعية، وتتجاوب مع متطلبات التطور التاريخي للأمم والشعوب نحو التقدم وتحقيق الحياة الفاضلة والسلام للإنسانية جمعاء،

1. سورة الحشر، الآية 14 - 2. عندما نستعرض المصطلحات التي تم الترويج لها مشرقا ومغربا في العالم الإسلامي منذ ما اصطلح عليه بداية عصر النهضة، سيكتشف أنها كانت مجرد شعارات روجت لأغراض لم تكن في غالبيتها ذات مقاصد نبيلة أو غايات تنبثق عن مبادئ وقيم تقود إلى التخلص من عصور الانحطاط الفكري والاجتماعي بل كانت مرتبطة إما بقيم منحطة بأزمة ثقافية غابرة لا علاقة لها بطموحات جيل النهضة وجيل التحرر من الاستعمار بشكليه القديم والحديث وإما أنها تدعو إلى الانقياد والتبعية للغرب بدعوى كونية الحدائث وعولمة القيم الإنسانية دون أن يسأل هؤلاء أنفسهم عما أضافوا هم إلى تلك القيم ما داموا يعتقدون بعولمتها وكونيتها أم تراهم اكتفوا بدور التلميذ والزبون ؟

بل راح كل طرف يحمّل مسؤولية الإخفاق للطرف الآخر عن ما آل إليه حال المجتمع والأمة من وهن وتأخر في تحقيق عملية التغيير المنشودة.

ومن انعكاسات غياب الحوار الإيجابي بين الذين تزعموا إنجاز مشروع النهضة/الانبعاث إحداث البلبلة في الأذهان والنفوس؛ بلبلة شبيهة بما كان يحدث في أئتنا زمن السفسطائيين. وأصبح الناس لا يثقون كثيرا في خطاب الانبعاثيين، لأنهم كانوا ينتظرون من يقودهم إلى شاطئ الخروج من ظلمات الركون في الزوايا المنسية للتاريخ، لا أن تُحاض بهم معارك دونكشوطية. وهذا يعني من بين ما يعني أن القاطرة انفصلت عن عرباتها وأضحت تتحرك بمفردها. وعوض القيام بنقد ذاتي من أجل إصلاح الخلل الذي جعل القاطرة تتحرك بدون عربات القطار وجد البعض المبرر في التصريح بأنه أخطأ في اختيار المجتمع الذي يريد تغييره.

ومؤدى هذا التصريح أن هناك فجوة خطيرة بين النخبة المعول عليها في إحداث التغيير وبين المجال المراد تغييره؛ وليس هذا فقط، بل إن هذه النخبة انقسمت على ذاتها إلى سلفيين وحدائيين، أي إلى القائلين بأن صلاح هذه الأمة لن يكون إلا بما صلح به أولها، وإلى الداعين في الأخذ بالحدثة والمعاصرة والعودة، وما إلى ذلك من مصطلحات وعبارات. فاتسعت الفرقة، بل الهوة والصراع السليبي بين من كان يفترض فيهم أنهم دعائم للمشروع النهضوي/الانبعاثي. وتم التخلي عن منطق المحددين والمحافظين الذي حكم ويحكم جدلية التطور وسنن التدافع.

وتحصن كل فريق في مواقعه، مدافعا بكل ما أوتي من قوة عن حصنه، إلى درجة بدا فيها أن أهمية الحصن في منظور هؤلاء

وأولئك أهم من المشروع الذي يدعون إليه، تماما كمن ينشغل عن المحبوب بحبه. في حين أن الحب لا وجود له إلا بوجود المحبوب.

والخلاصة أن القيم الثقافية لعصر النهضة، أو مشروع الانبعاث الإسلامي العربي لم يؤثر تأثيرا عميقا في إحداث التغيير المجتمعي المرتجى من قبل الأجيال المتعاقبة طيلة قرنين من زمن النهضة، ولا من قبل الشباب الطموح بطبعه إلى تغيير واقعه وتسجيل بصمات وجوده، وإثبات فعاليته في عالم تحاول فيه الثقافات المهيمنة أن تحتكر قيادته ووجهته، وتفرض قيمها على الجميع. مما دفع ويدفع هؤلاء الشباب إلى البحث عن التغيير بوسائل أخرى، أقل ما يمكن أن توصف بها بأنها تعبير عن عدم رضاه على حصيلة خطاب النهضة/الانبعاث بشقيه السلفي والحداثي، لأنه وسع الهوة بين الأزمنة الثقافية داخل المجتمع الواحد، وكرس الانقسام والعداء بين مكونات هذا المجتمع بدل التقريب بينها وفقا للمبدأ القائل: "الوحدة في التعدد".

إن حث الخطى للسير في ركاب الآخرين، سواء كانت الخطى تتجه إلى زمن السلف، أو كانت تتجه نحو زمن الآخرين، فإنها لم تستطع إحداث النقلة النوعية التي كانت منتظرة من مشروع النهضة/الانبعاث، والمتمثلة أساسا في نشر القيم الثقافية الهادفة إلى إحداث التغيير في طرائق التفكير والعمل للمجتمع، عوض دفعه إلى الانخراط في ثقافة الأزمات المتتالية التي لا يتولد عنها إلا التوتر والقلق السالبين للقيم الثقافية الخلاقة للمثال، أو الفكرة العظيمة القادرة على جعل الانجذاب نحو المستقبل أمرا ممكنا. ونعتقد أن تنظيم هذا الملتقى الدولي بموضوعه المتعلق بعلاقة الشباب مع الأصالة والمعاصرة ومحاوره التي تطال انشغالات مركزية تصب في هذا الاتجاه؛ فهنيئا وشكرا للمجلس الإسلامي الأعلى على هذه المبادرة. والسلام عليكم ورحمة الله.